أيار/مايو 2016

العلويون في سوريا: المواجهة مستمرة!

إياد العبدالله*

ليست الغايات المعرفية أو التأريخية المحضة هي من يقف وراء إنجاز هذه الدراسة، بل واقع حال البلاد وأهلها بعد قيام ثورة آذار/مارس 2011. ولهذا فإن هذه الدراسة ليست حيادية وهي منحازة سلفاً للثورة على النظام. ومن دون أن يعني هذا مجاراة كل ما أخذ يطفو على السطح باسم الثورة. تشتبك هذه الدراسة مع مفاهيم وقيم أصبحت قيد التداول على الساحة السورية، وكذلك تتعرض هذه الدراسة لبعض القضايا والاشكاليات التي ظهرت مع نشوء الدولة السورية، وكذلك بعض التطورات وصولاً إلى اللحظة الراهنة.

لطالما كان عملية استحضار "التاريخ" إحدى الآليات المتبعة في الصراع، وهي كثيرا ما تستسلم للأوهام لاسيما حين يغدو هذا التاريخ، تاريخ طبائع ثابتة وجماعات منسجمة سارت بافتراق مطلق عن بعضها البعض. هذه الآلية رافقت تقريبا جميع الحروب، لكنها تغدو ذات حساسية خاصة في الحروب الأهلية، لأنها تساعد على رسم الحدود المطلقة مع الخصوم، وتقود إلى تصورات متطرفة كأن يعتقد البعض بأنه لا حل لهذه التراجيديا الكونية إلا باختفاء العدو وإبادته، فالحياة لا تتسع لكلينا!

الطائفية صناعة، وليست من طبائع الأمور. وتاريخ هذه الصناعة في بلدنا يعود إلى بدايات تشكل الدولة السورية، لكنها ازدهرت في عهد البعث والحكم الأسدي. وبالنسبة لموضوعنا في الدراسة، العلويين، فإنهم ليسوا خارج التاريخ السوري وإشكالياته وقضاياه، إنهم جزء أصيل من المجتمع السوري، ولا يمكن أن يقاربوا خارجه وخارج التعقيدات والتطورات التي طالته.

* إياد العبدالله ، كاتب سوري، من هيئة تحرير مجموعة الجمهورية.

من النادر أن يقع المهتمّ على أبحاث ودراسات سورية تُعنى بتناول سوريا من حيث مكوناتها الثقافية والسياسية والاجتماعية. يعود ذلك إلى أسباب عديدة، ربما كانت التركيبة التسلّطية للنظام وما فرضته من رقابة ومنع وقمع بغية التأسيس لمجتمع صامت عديم الشخصية؛ هي أول عائق أمام سبر أغوار مجتمعاتنا.

ثمّة حساسية سورية عريقة في سلبيتها اتجاه هذا النوع من الدراسات، بدأت تباشيرها مع التكوّن السوري الأول الذي أيقظته مدافع الجنرال الفرنسي غورو على واقع جديد ستحضر فيه هذه المكونات الاجتماعية بوصفها مدخلاً إلى تفتيت الكيان السوري الوليد. ولهذا لن تجد النخب السياسية والثقافية سبيلاً إلى مقاومة هذا الواقع الجديد، إلا بالإيديولوجيا التي انشغلت بالرد والسجال مع ذلك التصوّر الاستعماري الذي اجتهد في تكريس تصوّر فسيفسائي سكوني لمجتمع السوريين. تظهر عناصر هذا الأخير وفقه متجاورة بحكم الصدفة أو غيرها، ولا تنطوي على أي تجانس أو جامع بينها، بل على استحالة ذلك أيضاً. ولهذا، انشدَّت النخب السورية في البداية إلى تصوّر من الوطنية المكافحة والقلقة والطامحة إلى جمع شتات ما تبقى من سوريا، بعد أن بددها من كانوا حلفاء الأمس. ومهّد كل هذا فيما بعد، لظهور الطوباويات الجماهيرية (العروبية والشيوعية والإسلامية والقومية السورية) التي أخذت تبرز منذ ثلاثينيات القرن المنصرم، والتي تعاملت إيديولوجياً مع المجتمع السوري بما يفيد تنسيبه وشده إلى هويات تقع خارجه، لم تكن السورية إحداها.

مع وصول العسكر إلى السلطة بعد الاستقلال، لاسيما عسكر البعث، سيغدو المجتمع السوري مقولة إيديولوجية بامتياز، يحيل دائماً إلى جماهير ينحصر مجال وجودها في حشد طاقاتها لأجل معركة الوجود مع الاستعمار والصهاينة. لقد تم تأميم المجتمع وتطويبه باسم السلطة، حتى غدا ملكاً لها، فهي الوحيدة المخوّلة بضبط غرائزه وقيادته نحو النهايات السعيدة والقادرة على ذلك. فهي وريثة ذلك التطابق بين الدولة والعقل والتاريخ والقيم المجيدة، وينبغي أن يبقى المجتمع مُلحقاً بتصوراتها وموضوعاً لتجاربها وشعاراتها ورجالاتها.

من ناحية أخرى لم ينتج عن هذه المكوّنات ما يفيد أنها مهتمة بكتابة تاريخها. بالطبع لا يمكن لجماعة أن تمتلك إرادة واحدة وتنحو نحو مثل هذا الفعل، بل غالباً ما يكون هذا فعالية نخب تعي ذاتها بالانتماء إلى هذه الجماعة، أو تفترض مصالحها مثل هذا الانتماء. وربما كان الاختراق الوحيد لهذه القاعدة، وإلى حد ما، جاء من طرف إسلاميين تعرّضوا لهذه المكوّنات، لكن إيديولوجيا أيضاً بما يعزّز أدوات صراعهم مع الآخرين.

العلويون على سبيل المثال، سواء في مرحلتهم الفرنسية عندما كانت لهم "دولة"، أو في المرحلة الأسدية، لم يلتفتوا إلى هذا المجال، بل وحتى الآن، رغم الفاتورة الكبيرة التي دفعوها من دماء أبنائهم والمخاوف الكبيرة على مستقبلهم، لم تستيقظ فيهم الرغبة إلى ذلك، بل ما زالت مفردات "الوطنية" والانتماء إلى سوريا، التي يتزيّن بها النظام، حاضرة بقوة. وبالطبع لا يعني هذا تنزيه العديد ممن انخرط من العلويين (وغيرهم أيضاً) في الصراع الطائفي الدائر، حتى ولو كانوا يستتّرون وراء مثل هذه "الوطنية". بل إن هذه الأخيرة وغيرها كالعلمانية والحداثة والإسلام، تغدو أثناء النزاعات الاجتماعية والسياسية، أدوات في يد أطراف هذا النزاع، وغالباً ما يتم تضمينها عناوين جديدة يفرضها واقع الصراع وطبيعة الخصوم. في سوريا بعد ثورة آذار/مارس 2011، من المفيد النظر إلى هذه المفاهيم في سياق الصراع الدائر فيها.

من ناحية أخرى، في لحظات الصراع والانقلابات الكبرى التي تطال كل شيء في المجتمع، ربما تستيقظ رغبات عند بعض نخب المكونات الاجتماعية نحو صياغة سردية خاصة بالجماعة التي ينتمون إليها أو ينحدرون منها. هذه السردية هي بشكل ما إحدى أدوات هذا الصراع، لأنها ترسم حدود الذات وماهية الآخر الذي يشكّل خطراً على الوجود. ولهذا، فإن هذه السرديات التي قد تنتج غالباً ما سوف يتغلب عليها الإيديولوجي السجالي على الموضوعي أو المعرفي. وأكثر من

ذلك، ربما تستيقظ ذات الرغبة عند نخب أكثر استقلالية وترفّعاً عن أهواء الأهل ومواقعهم، إلا أنهم من الصعب أن يترفّعوا عن الصراع الذي ينخرطون فيه هم أنفسهم بطريقة ما، بمعنى، غالباً ما سوف يكون نتاجهم محكوماً بهذا الصراع، بل إحدى أدواته أيضاً لأنهم سوف يجدون أنفسهم في مواجهة جميع السرديات اللاعقلانية أو المتحزّبة الصادرة عن أطراف الصراع.

من المواضيع التي ينبغي مواجهتها، ما نراه من انفلات بالأحكام التعميمية التي طالت كل ما يمت للعلويين بصلة، سواء ما يتعلق بتاريخهم أو وجودهم وما ينسب إليهم من تفكير أو سلوكيات عديد منها مليء بالأوهام والخرافات، ووسمهم بكل ما هو غريب وعجيب مما يسهّل وضعهم في خانة الأعداء الخارجين عن كل ما يمت للبشرية. مصدر هذه الأحكام، غالباً، هو إما إسلاميين مدّهم موقف العلويين من النظام، بالمزيد من القوة في عرض أفكارهم التي كانوا يعرضون العديد منها قبل الثورة ولكن بقيت هامشية. أو من قبل بعض الغاضبين المجروحين الذين وجدوا أنفسهم في وسط جنون الموت والدمار الذي صنعه النظام.

إن هذه المواجهة المطلوبة ليست نداء للدفاع عن هذه الجماعة أو عن غيرها، بل عدا عن أهميتها المعرفية الموضوعية، فإن لها أهمية سياسية ووطنية من خلال وضع العلويين في السياق السوري، تاريخياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً..الخ، وهو ما يتيح التعاطي معهم ضمن هذه السياقات والانطلاق نحو مبادرات ربما تكون ناجعة في حلحلة المعضلة التي وصلنا إليها. العلويون ليسوا خارج التاريخ السوري، بل إنهم فيه وأحد صنّاعه ولا يمكن أن يُفهَموا خارج سياقاته وإشكالاته.

ولكن في الوقت نفسه، ينبغي مواجهة تلك السرديات والتصوّرات التي شاعت وتحصّن خلفها علويون أثناء انخراطهم في الصراع الدائر في سوريا إلى جانب الأسد، كالسردية "الوطنية" والمظلومية العلوية، وتصوّراتهم عن الآخرين. وهي في مجملها تجد لها جذوراً سابقة على الثورة، وبعضها يمتد حتى التكوّن السوري الأول، وغير قليل منها اشتغل عليه النظام لعقود.

في السياق السوري، رغم ما شهدته سردية السلطة الحاكمة من تفسّخ بعد الثورة بعد أن سادت بقوة الطوارئ طوال عقود ماضية، وبقي هيكلها العظمي الأمني والطغياني، فإنها لا تزال حية، وإن في غرفة الإنعاش، عبر من بقي مع النظام كقاعدة اجتماعية، وهم مزيج من مختلف الفئات والمكوّنات، وإن تبدّت أكثر في أوساط الأقليات، والعلويون على رأس هؤلاء.

بالنسبة للعلويين، تغدو هذه السردية "الوطنية" روايتهم الوحيدة التي يستطيعون الجهر بها وتقديم أنفسهم للسوريين الآخرين عبرها، حتى الخصوم منهم. وحتى الآن، ربما لا يملك العلويون سوى هذه السردية للمجاهرة بها، وبما أنها سلطوية بامتياز، فهذا يعكس مدى إحكام النظام قبضته وتغلغله في "الاجتماع" العلوي.

فجميع المكونات الأخرى تقريباً، وليس فقط من ذهب منها إلى مواقع الخصومة مع النظام، بل حتى من بقي في صفّه، برزت فيها شخصيات ونخب دينية وأهلية تدّعي أنها تنطق باسم الجماعة التي تنتمي إليها. وبعضهم رفع أعلاماً خاصة له حتى وإن كان لا يزال علم النظام يمثّلهم. ويحرص هذا الأخير على أن تتصدر نخب أهلية المشهد الإعلامي والسياسي السوري، ولكن على أن ترطن بخطابه وثوابته وبالولاء له. هذا مهم بالنسبة له، فالأهل ينصرونه، والحرب معه بالتالي ستقود إلى حرب أهلية بالضرورة، فمن يحاربه سوف يحارب هؤلاء أيضاً.

النظام السوري هو مشروع حرب أهلية دائمة بامتياز. في مناسبات عديدة، وفي الهزّات القوية، تجد رجل الدين المسيحي والسّني والشيعي وشيخ العقل الدرزي حاضراً، لكن لا تجد شيوخاً علويين أو نخباً أهلية منهم. فخلال الثورة، استأثر العلويون بصورة العسكر والشبيحة فقط. هذه هي الصورة التي سعى النظام إلى أن يظهرها منهم، وهذه لعبته في خنق هذه الجماعة حتى تجد نفسها في قلب المواجهة الدائرة، فتضيق خياراتها ولا يبقى لها إلا المواجهة حتى النهاية.

التعاطي بالأهل، ودفعهم ليكونوا في المواجهة، هو ما أسس له النظام عبر عقود حكمه. كان له مساهمة كبرى في "أهلنة" الثورة عبر أسلمتها. بمعنى، كانت "أهلنة" الثورة هي أحد وجوه الرد على "أهلنة" النظام لصراعه معها، ويقع على عاتقه الوزر الأكبر في حرف الأمور نحو الأسلمة. الإسلاميون أيضاً هم مشاريع حرب أهلية مستمرة. والأهلي حاضر في قلب خطابهم وممارساتهم وتسلطهم، ولا يخفى دورهم في تعزيز التصلب الذي ميّز "أهل" النظام، وفي إفساح المجال لهذا الأخير لكي يناور داخلياً وخارجياً.

ليست "الوطنية" هي سردية العلويين الوحيدة، فهذه السردية المعلنة لهم. ثَمَّ سرديات أخرى مضمرة، يتم تداولها شفاهة، ولا يعني هذا بالطبع أن ثمّة إجماعاً علوياً عليها، أو أن الجميع يستسلم لما تزعمه من حقائق أو تدّعيه من وقائع وسِيَر. ومع هذا نستطيع القول إن هذه السرديات قد ارتفع مجال حضورها وتوسّع بعد ثورة آذار/مارس 2011، ولاسيما خلال عسكرة الثورة، ثُمّ تَصدُّرُ المحاربين الإسلاميين للمعسكر المقاتل للنظام. ترتدي هذه السرديات ثوب الطوارئ لأنها تلعب دوراً في تعبئة الناس أمام أخطار يتم تقديمها على أنها تهديد للوجود بحدّ ذاته، واستعادة لماضٍ لم يكن فيه إلا ما هو مؤلم وقاسٍ.

المظلومية هي إحدى هذه السرديات، وأبطالها الظالمون كثر ومتنوعون، فهناك العثماني الذي أباد وحرق وسلب ونهب واغتصب، وهناك الإقطاعي الذي أذلّ وظلم وسرق وحقّر، وفيها الجيران الذين شاركوا في كلّ هذا أو سكتوا عنه على أقل تقدير. أما من جهة المظلومين فلا تُعَدِّد، فنحن من وقع علينا الظلم وذقنا الويلات، فقط لأننا علويون! شرط التغاضي عن هذه المظلومية وركنها على الرف، هو العدالة! وهنا تطلّ هذه العدالة بمعايير الوجود والهوية لا السياسة والحقوق والمواطنة، ليغدو العادل هو كل ما يحفظ أمننا ووجودنا ويمنع عنا أسباب الإبادة والزوال. أو كما ردّ عليّ أحد الأشخاص قائلاً: "نوافقك أن النظام استبدادي ومجرم، ولكن لماذا لا ترى أن الطرف الآخر لا يختلف عنه، بل أسوأ. النظام يقتل ويسجن من يعارضه، وفي هذا هو لا يفرّق بين جماعة وأخرى. أما ثوّارك الإسلاميين فانظر إلى ما يكتبون ويقولون ويفعلون، إنهم يهدّدون الشخص بحسب انتمائه وولادته، ولن يرتاحوا حتى يبيدوا كلّ من ليس منهم. يعتقدون أن الله كلّفهم بهذا"! وعندما سألته مستغرباً موقفه ممن عاش معهم وبينهم لسنوات طويلة، أجاب مصحّحاً: "أنا لا أتكلّم عن هؤلاء الذين يُقتلون هم أنفسهم على يد ثوارك الإسلاميين الوهابيين". وعندما سألته عن معنى كلامه عن الظلم التاريخي الذي لحق بالعلويين، في فترة لم يكن فيها وهابيون في سوريا، بل إن من يقول عنهم إنهم عرضة لسكاكين الوهابية من السنّة اليوم، هم ليسوا إلا أحفاد أولئك الذين ظلموكم سابقاً. أجاب: "هذا صحيح، والفضل يعود للنظام الذي تقاتلونه، فرض على الجميع أن يتعايشوا في بلد واحد لا يُستَهدَف فيه أحد على أساس أصوله الاجتماعية والدينية"!

النظام إذاً كان قطيعة مع ماضٍ سيئ، وسقوطه استئناف لهذا الماضي. المظلومية حافلة بالتناقضات، وهي ليست تاريخاً وإن كانت تستأنس بالتاريخ وتستحضر منه وقائع حقيقية. إنها سردية طوارئ وهوية ودعوة إلى التماسك والتلاحم. ولهذا فإن سردية المظلومية عند العلويين ليست مدوّنة، تكتفي بحكايا الأجداد وببعض الأحداث المتناثرة في كتب التاريخ. إثر مواجهاته مع الإخوان المسلمين في ثمانينيات القرن المنصرم، ضخّ النظام دماء جديدة في سردية المظلومية وأبقاها تحت

رعايته، فليس له مصلحة بموتها، ولكن ليس من مصلحته أن تكبر وتدوّن فتنفتح أبواب مواجهات اجتماعية قد تهزّه، أو أبواب الدرس والنقد والتمحيص، لذلك أبقاها كامنة إلى حين الضرورة.

ثمة سردية أخرى تتقاطع أحياناً مع سردية المظلومية، ولكنها أيضاً أقرب إلى أخرى تمسّك بها علمانيون وباقي الأقليات. تستلهم هذه السردية مفردات تُحيل على الحداثة والتقدّم والانفتاح والمرأة، وتصدر عن ذهنية ترى في نفسها تفوّقاً حضارياً وأخلاقياً على آخر مغرق بالانغلاق، ويقوده تزمّته إلى نمط حياة فقيرة أخلاقياً واجتماعياً، وغالباً ما تحضر المرأة كمؤشر لتدعيم صيغة التفوق هذه. شخصياً، عندما كنت في سوريا سمعت سؤالاً لطالما تكرر من علويين وغيرهم: "ما هي هذه الحرية التي يمكن أن يأتينا بها من يتزوج بأربع نساء ويحبس نساءه ويحجّبهن ويراقبهن وينظر إلى كل امرأة سافرة على أنها عاهرة؟". تنمّ هذه السردية عن تفوّق يفترضه من يتمثّلها بنفسه، فما يكسبه هو بالطبيعة منذ ولادته يحتاج الآخر إلى بذل جهد وثقافة لكي يصل إليه، وإلا فسيكون محكوماً عليه بالعيش خارج الحضارة والتقدّم!

هذه السردية بكل الأحوال تكاد تكون مشتركة بين معظم الأقليات، وربما تكون عند المسيحيين أكثر منها عند أقليات تنتمي إلى المجال الإسلامي، كما أنها تتقاطع في العديد من مقولاتها مع سردية علمانية وجدت لنفسها بعض المساحة في سوريا. التفوّق المفترض عند أهل هذه الرواية، لا يخلو من مخاوف من اضطهاد مفترض سيقع عليهم فيما لو تخلخلت الأوضاع القائمة ومالت لصالح "خصوم" الحضارة والترقي الاجتماعي. وهنا يبرز سؤال يوازي ذلك السؤال الذي سأله بوش الابن عقب أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2011: "لماذا يكرهوننا؟ يقولون إن النظام علوي، لكن النظام في لحظات قوّته بنى لهم الجوامع والمعاهد الشرعية ولم يجبرهم على تغيير دينهم أو على نزع حجاب نسائهم وغير ذلك. لقد قبلنا بهم وتعايشنا معهم كما هم فلماذا هم لا يقبلون بنا كما نحن؟".

بعد أن تحرّك قطار الربيع العربي من تونس نحو بلدان عربية أخرى، كان سؤال: هل تكون سوريا إحدى محطاته؟ يشغل بال سوريين كثر، وكانت شبكات التواصل الاجتماعي مجالاً للأخذ والرد فيه، ولم يعدم الأمر وجود إجابات طائفية مبكّرة تربط العلويين بالنظام وتدعو إلى النيل منهما. لكن ثمة هاجس عامّ كان يصيغ إجاباته استناداً إلى أن الواقع السوري أكثر تعقيداً من غيره، لأسباب متعدّدة أهمها طبيعة السلطة الحاكمة وواقع التنوّع الاجتماعي، الديني والطائفي والقومي. وكان ثمّة مخاوف تتردد من أن أي حراك محتمل ومماثل لما حصل في بلدان عربية أخرى، قد يقود إلى انفجار اجتماعي أهلي ستكون تكاليفه باهظة، على غرار ما حصل في كلٍّ من لبنان والعراق. إذاً، لم تكن الطائفية غائبة عن وعي السوريين آنذاك بوصفها قنبلة موقوتة قد تودي بالبلاد والعباد إذا ما انفجرت. ولأجل هذا، اندفع بعضهم لمحاولة تلافي ذلك، كما حصل أثناء توقيع المئات من المثقفين والمتابعين على ما سُمّي بـ "ميثاق شرف وطني".

على الرغم من هذا، بعد قيام الثورة في آذار/مارس 2011، لا يبدو أن المعارضة السورية قد بذلت أي جهد يُذكر في مواجهة واقع أخذ يعمل النظام على خلقه، وهو واقع التناحر الأهلي الطائفي، بل إن بعضها ليس بريئاً أصلاً من الطائفية. لقد تُركت هذه الساحة للنظام لكي يلعب بها، وهي ساحته التي أسس لها عبر عقود حكمه. لم يتأخّر طرق الباب الأهلي، فبعد أقلّ من 10 أيام من عمر الثورة قُتل أول علوي في حمص، وبعد أقل من شهر في 12 نيسان/إبريل 2011 حصلت حفلة التعذيب الجماعية لأهالي قرية البيضا في بانياس والتي حرص النظام على تخريجها طائفياً. وبعد ذلك بخمسة أيام في 17 نيسان/إبريل، قُتل العميد عبدو التلاوي وولديه وابن أخيه بطريقة بشعة، سيكون الردّ عليها بقتل ستة من سنّة حمص. لتأتي حادثة مقتل نضال جنّود في بانياس بعدها بأربعة أيام، كلّ هذا في الشهر الأول للثورة. اكتفى معارضون باتهام النظام

أنه وراء ذلك كله، وربما يكون هذا صحيحاً، ولكن هذه الوقائع وغيرها أخذت تحفر في وجدان الناس، وستكون من الوقائع التي سيتم التأسيس عليها طائفياً، وكان ينبغي مواجهتها بعقلانية وحزم.

الأيام التي سوف تأتي على حمص بعد ذلك مباشرة، حين تحوّلت إلى مدينة أشباح بعد حوادث القتل والخطف المتبادلة بين سكّانها سنّة وعلويين، تُظهر فاعلية كبيرة للنظام على هذا الصعيد. فحمص كانت الرسالة الأولى التي أرسلها النظام للعالم وللسوريين عموماً وللعلويين خاصة، ومفادها أن هذا هو المستقبل بدوني، وداعش في الرقة لاحقاً كانت الرسالة الثانية.

لم تمضِ سوى بضعة أشهر من عمر الثورة حتى بدا أن شقاقاً أهلياً قادماً أحد عناوينه الأساسية سيكون "العلويون". دون أن يعني هذا أن هذا الشقاق الأهلي محصور فقط بالصيغة الطائفية، فلا يزال معسكر النظام متنوّعاً يحوي بالإضافة إلى طيف واسع من الأقليات نسبة من سنّة سوريا الذين توزّعوا بين هذا الموقع وبين الصمت وبين خصومة النظام، بينما غدا معسكر الثورة أقلّ تنوعاً حتى ولو التحق فيه من مكونات اجتماعية مختلفة.

في الواقع، هذا التنوع القليل عند أهل الثورة، لا يعني أن هذه الأخيرة ذات هوية سنية طائفية واعية حين انطلاقها، كما يريد أن يصوّرها محسوبون على النظام وإسلاميون وغيرهم. ربما من الأدق فهم هذا الأمر في سياق موضوعي انشغل عليه على مدار عقود من عمر السلطة. ثمة هندسة اجتماعية قاسية رُكِّب على أساسها المجتمع السوري جعلت من الاصطفاف الحالي أمراً موضوعياً إلى حد ما. ولكنّ هذا ربما يفتح باب التساؤل حول فشل الثورة والمعارضة السياسية في التعاطي مع البنية الاجتماعية التي رتّبها النظام. ولهذا الفشل أسباب عديدة يقع على عاتق نخب الثورة السياسية والثقافية نصيباً منه. فهناك من تعاطى مع الأمر بنكران أو استسهال مردَّه أنه بسقوط النظام سوم تنتهي هذه المشكلات أو سيتم التفرّغ لها. وهناك من راقت له لعبة النظام ولم يجد ضيراً في الانخراط فيها. هذا عدا عن الانفتاح على قوى محاربة لا يمكن لشرائح عديدة من السوريين التعاطي معها، سواء من الأقليات أو سنّة سوريا، كما حصل حين أعلن رئيسا المجلس الوطني والائتلاف أن جبهة النصرة جزء من ثورة الشعب السوري.

مع انطلاق العسكرة التي سَيَرْتهن بعضها إلى الأجندات التي كان يحملها المال السياسي، والتي كان بعضها إسلامياً، ثم تدرّج الأمر وصولاً إلى أن يحتكر الإسلاميون تقريباً قتال النظام، كان جلياً أن الخيارات تضيق لدى العلويين خصوصاً، وأن القتال غدا هو السبيل الوحيد للبقاء. لاسيما أن الجهاديين يعلنون أن لا مساومة حول أهدافهم في أسلمة سوريا دولة ومجتمعاً، وتخيير أقلياتها (ما عدا المسيحيين الذين لهم ترتيب آخر) بين الإسلام "الصحيح"، وبين حرب دائمة، وهو ما يُعتبر في كلتا الحالتين تهديد وجودي لهذه الأقليات. إضافة إلى ذلك بعض الفتاوى التي تصدر عن شيوخ الجهاد، وتلعب دوراً في رفع الجاهزية لدى العلويين إلى أقصى حدّ، كتلك التي أفتى بها الشيخ السعودي المحيسني، والذي أصبح نجماً في الساحة الجهادية، بأنه لا يجوز قتل النساء والأطفال، أما الرجال فجزّ الرقاب.

ما أريد قوله، إنه أمام الاستنزاف الكبير الذي تعرّض له العلويون من حياة أبنائهم ومصادر رزقهم، ووصول المعارك والخطر إلى قلب مناطقهم، والهزائم الكبرى التي تعرّض لها جيش النظام مؤخّراً؛ سيدفع نُخباً منهم إلى القيام بمبادرات بهدف التفاوض مع الخصوم أو لفتح بعض النوافذ معهم. إذ يصحّ على العلويين ما يصحّ على غيرهم من جماعات في

لحظات التعب أو الهزيمة واقتراب الخطر. لكن مع تصدّر الإسلاميين جبهة الخصوم، أصبح اللجوء إلى هذا الأمر غير متاح، فالخصوم الحاليين واضحين في خطابهم، لن يتنازلوا عن أقلّ من إلغاء وجود كلّ آخر، سواء بالحسنى أو بالحرب.

حتى الآن، لا زال العلويون بلا صوت خاصّ يعبّر عنهم، أو يدّعي التعبير عنهم كجماعة. ولا زال الخطاب المُعلن لقطّاعات لا بأس بها منهم، يستلهم مفرداته من ثوابت "الوطنية" السلطوية الأسدية. وهذه الأخيرة واضحة تجاه من يخالفها، ولا تختلف آلياتها في مواجهته عن تلك التي يتبناها خصومها من أهل الحرب والجهاد. فهي لا تساوم أيضاً في وسمه بالخيانة والحكم عليه بالموت والفناء، كما تبدّى ذلك خلال الثورة على الأقل. بل إنها أصل الحرب والدمار الذي لحق بالبلاد. إنّ التحاق علويين بهذه "الوطنية" السلطوية، يجعلهم جزءاً من آلة حربها، وينصّبهم أعداء في نظر من يكتوي بنارها.

الآن، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، ربما هذا حال الكثير من العلويين، لكن بعد هذا النزيف الذي أصابهم خلال هذه المعركة، فإنهم غالباً لن يقبلوا أن يبقوا بلا صوت بعد انتهائها. وهنا قد نشهد ظهور ما سمي بـ "العلوية السياسية" التي لا أجد ما يؤيّد وجودها قبل ذلك، عكس ما ذهبت إليه بعض الآراء التي لم تستطع حتى الآن أن تقدّم شرحاً لماهية هذه "العلوية السياسية".

من ناحية أخرى، طوال فترة حكم النظام الأسدي، وحتى ما قبل الثورة، لم يكن للعلويين أي تطلّعات أو هواجس تدور حول ضرورة أن يكون لهم، كعلويين، سند إقليمي أو دولي أو امتداد أهلي وطائفي ما وراء الحدود. كانوا مكتفين ومتشبعين بالانتماء إلى سوريا التي غدت مستقرّهم الذي يشعرون فيه بالأمان، ويستطيعون فيه العمل وإنجاز معظم متطلّبات حياتهم. تاريخياً، كانوا دائماً على الهامش وبلا سند أو امتداد، على العكس من باقي المكوّنات الاجتماعية الأخرى، ما خلا مرحلة الانتداب الفرنسي الذي كان سنداً لمن يدعم مشروع سيطرته وبقائه منهم. لا يوجد في ذاكرة العلويين عن مرحلة الفرنسيين إلا ما يفيد بأن هؤلاء مستعمرين حاولوا تقسيم سوريا التي ينتمون إليها. ولا يستحضرون إلا صورة أجدادهم المقاومين لهذا المشروع، وعلى رأسهم الشيخ صالح العلي قائد أول ثورة في سوريا ضد الفرنسيين.

حتى جيرانهم العلويين في تركيا، لم يسعَ العلويون إلى فتح قنوات معهم، وكل ما يعرفونه عن الأمر أن هناك علويين في تركيا، ولكنهم يبقون أتراك، ونبقى نحن سوريين. كما إن محاولات اختراقهم عبر التشيّع فشلت ولاقت مقاومة دينية واجتماعية، كما لاقت ممانعة سلطوية أيضاً لاسيما في عهد حافظ الأسد. ومعلوم أن أكبر اختراق حقّقه التبشير الشيعي في سوريا كان في أوساط سنّية، لاسيما في شرق سوريا وجنوبها. ولكن بعد انتهاء المعركة، وبعد أن يعي العلويون حجم الكارثة التي نزلت بهم، قد يستيقظ لديهم الميل نحو إيجاد امتداد لهم أو سند إقليمي ودولي، وربما كانت حظوظ إيران هي الأوفر في ذلك.

عن الكاتب

إياد العبدالله ، كاتب سوري، من هيئة تحرير مجموعة الجمهورية. تخرج من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة حلب، ونشر في بعض الصحف والمجلات العربية والمواقع الالكترونية.

عن مبادرة الإصلاح العربي

"مبادرة الإصلاح العربي" هي مؤسسة عربية رائدة ومستقلة للبحوث الفكرية، تأسست عام 2005 لصياغة برامج منبثقة عن المنطقة من أجل تحقيق التغيير الديمقراطي. تلتزم المبادرة في عملها مبادئ الحرية والتعددية والعدالة الاجتماعية. وتقوم بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم في الوقت نفسه منبراً للأصوات المتميّزة والشابة. يشرف على عمل "مبادرة الإصلاح العربي" مجلس الأعضاء وهيئة تنفيذية.

- نقوم بإنتاج بحوث أصيلة يقدمها خبراء محليون، ونتشارك مع مؤسسات عربية وعالمية لنشرها وتوزيعها.
- نسعى لتحفيز الأفراد والمؤسسات على تطوير رؤيتهم الخاصة للحلول السياسية والاجتماعية.
- نقوم بحشد الأطراف المعنية لبناء تحالفات تسعى لتحقيق التغيير.
- نهدف لأن تشهد الدول العربية صعود مجتمعات ديمقراطية عصرية.

مبادرة الإصلاح العربي، أيار/مايو 2016

www.arab-reform.net

© 2016 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، اضغط لقراءة الرخصة الكاملة

contact@arab-reform.net